مارى ، واليصابات ، وشارلوت ، وباتريك برانويل ، واميـــلى ، وجين ، وآن .

هؤلاء هم الأخوات اللائى يحملن اسم برونتى : ست بنات وصبى واحد هو باتريك برانويل ، صاحب الاسم المستعار من أبيه ومن جـده لأن اسم أبيه باتريك واسم جده برانويل .

كان أبوهم راعى الكنيسة فى البلد رجلا غريب الأطوار صارم الخلق ، عاش فى شظف وفاقة على قدر مرتبه الصغير ووسائله المحدودة ، ولكنـه عاش فى كرامة موفورة ، وفى استقامة ظاهرة باطنـة ، لا يشوبها رياء ولا ادعـاء .

وكانت أمهم مارى برانويل . فتاة ضئيلة الجسم ولكنها على نصيب من الوسامة ، وعلى نصيب مما هو أشرف من الوسامة وأرفع وأجدى ، وهو عزة النفس وطيب السجية ، تدل عليها مكانتها فى قلب زوجها الكريم المستقيم ، ويدل على هـذه المكانة أنه سمى وليدتهما الأولى باسمها ، وسمى وليدهما الوحيد باسم أبيها .

ماتت الأم بمرض السرطان قبل أن تتقدم الى سن الكهولة ، وبعد حياة معتلة فى جهد وصبر واكتفاء بالقليل من العـلاج ومن ضرورات الحيـاة .

وماتت الأختان الكبريان ـ مارى واليصابات ـ فى سن الطفولة ، وعاش الصبى الوحيد الى سن الشباب ولكنه مات فى عنفوان عمره بعد استنفاد شبيبته القصيرة فى السكر والمجون .

أما الأخوات الباقيات اللواتى عمرن قليلا فقد كانت أطولهن عمرا

شارلوت ، لأنها ماتت سنة ١٨٥٥ وقد ناهزت الأربعين ، وعرفت أختاها الأخريان فى عالم الأدب . احداهما « اميلى » توفيت سنة ١٨٤٨ عن نحو ثلاثين سنة ، وشقيقتها آن توفيت بعدها بأربعة أشهر عن تسع وعشرين سنة .

ولم يتعلم الأخوات جميعا فى غير بيتهن ومدرسة صغيرة فى طبقة المكتبات الأولية ، وزادت شارلوت وأميلى بحصة من التعليم المتقدم بمدينة بروكسل ، فعرفتا اللغة الفرنسية معرفة حسنة تؤهلهما للقراءة فيها والاستفادة من مطالعاتها ، ولم تكسب كلتاهما شيئا من المال غير مائة جنيه لكل منهما ورثتاها عن خالتهما التى تولت تربيتهما بعد موت شقيقتها ، ولم يكن كسبهما من العمل يزودهما بشىء يزيد على الكفاف ، وأصلحه للكسب والراحة هو عمل المربية أو المدبرة المنزلية فى بيوت المتوسطين والمتوسطات من أشباه الفقراء ، لولا التستر بمظاهر الأغنياء فى تقاليد المعيشة .

وقد سجلت لنا أقلام الأخوات الثلاث اللاتى اشتهرن فى عالم الأدب أسماء الرجال والنساء الذين عملن معهم وراء العناوين القصصية المستعارة ، فاذا بهم جميعا مع قليل من الاستثناء متسمون بسمات الجد المفرط الى حد الصرامة أو سمات الغرابة الى حد الهوس أو سمات القلق الى حد الشقاء ... فليس فى شخوص الروايات والتصانيف التى كتبتها شارلوت أو اميلى أو آن — بطل واحد أو بطلة واحدة يلازمهما الانسان بغير صبر طويل وقدرة دائمة على الأغضاء والغفران .

ولما شرعت الأخوات الأديبات فى الكتابة لم يستقبلهن عالم النشر والتوزيع بكثير ولا قليل من الاقبال والتشجيع ، فاضطررن الى طبع الكتاب أحيانا على نفقتهن ، ولم يزد ما بيع من بعض الكتب على نسختين ، ولم يحفل النقاد بما وصل الى أيديهم من تلك الكتب فى مبدأ الأمر . ثم كان الناقد الذى شذ عن هذه القاعدة الشاملة شرا على « المؤلف المزعوم »

من زملائه الصامتين ، لأنه وصفه بالقسوة والوحشية واصطناع المواقف التى تذهب بغرائب الطباع مذهب الاغراق والاستحالة .

ان قيمة المكتبة « البرونتية » عظيمة فى ميزان النقـد والأدب ، ولكنها ـ مهما يبلغ من عظمتها ـ تقصر عن قيمة الذخيرة الخلقية التى نستفيدها فى حياة كل شقيقة من هؤلاء الشقيقات النابغات ، ومن حياة الأسرة بأسرها بين النجاح والخيبة وبين الألفة والغرابة .

حيوات قصيرات لم تكد أطولهن أن تبلغ الأربعين .

حيوات مضت فى الضنك والصبر على الشدة والخشونة من الدنيا ومن النـاس .

حيوات لم تستعد للمعترك المرهوب فى عصرها بعدة من التعليم تزيد على النصيب المقدور لعشرات الألوف بين عامة النساء والرجال .

كيف تثمر حياة من هذه الحيوات ثمرة نافعة ؟

وكيف تبقى لها قدرة على الخلق والانتاج ولا تضيع كل الضياع بين مصائب الموت والسقم ومصاعب الضنك والقسـوة من الدنيا ومن النـاس ؟

هذه كلها آفات « سالبة » تهدم وتحطم ولا تساعد على بناء ولا بقاء .

فمن أين جاءت تلك القوة الموجبة التى قاومت كل ما أحاط بالفتيات الضعيفات من قوى الهدم والسلب وتركت لهن بعد ذلك فضـلا من القدرة على الخلق تعيش معهن وتعيش بعدهن ، وتعيش الى اليوم ؟

تلك القوة الموجبة هى الايمان الموروث والايمان المكتسب والايمان الحق بدعامة للحياة وأساس للخير فى الدنيا وفى النفس البشرية صالح للبناء عليه .

فهذا الانسان ناقص وتلك الانسانة ناقصة .

وهذا الرجل لئيم كفور وتلك المرأة سخيفة خرقاء .

هذا العمل ضائع وذلك الأمل خائب .

هذا الزمن مجدب مضطرب ، وذلك الزمن متخلف مدبر ، أو مستقر على الجمود والركود .

لكن هذه النقائص جميعا هى «النسخ» المغلوطة من الأصل الصحيح، وهى النقل الكاذب عن الصورة التى تكشف الكذب وتنفيه ، وتمنعنا أن نقبله ونزكيه ، لمجرد وجوده تحت نظر العيان ، لأن الصورة الصادقة موجودة أيضا وجودا لاشك فيه بين أطوار الضمير .

ولقد كان الايمان بهذه الدعامة الراسخة بعض ميراث الفتيات من خلائق أبويهن ثم تعلمن بالقدوة المحسوسة كيف يكون الرجل فى مكانة أبيهن بوظيفته الدينية ثم يقنع بما رزقه الله من كفاف العيش ويأبى أن يسىء الى مكانته الملحوظة بعمل من أعمال التبذل أو أعمال النفاق ، وكيف تكون المرأة فى ضعف أمهن ثم تروض بنيتها الهزيلة على متاعب المنزل ومطالب التربية وضرورات الحياة الاجتماعية ، وتتقبل قضاء المرض العياء بالصبر الذى يترفع عن الشكاية وبالتسليم الذى يتحرج من الشك فى الخير والتبرم بالحياة .

* * *

كانت لشارلوت صديقة كاتبة روائيـــة هى السيدة اليصـــابات ستيفنسون التى اشتهرت بعد زواجها باسم قرينها جاسكيل ، وكانت مثلها بنت راع للكنيسة ثم أصبحت زوجة راع لكنيستها وكنيسة أبيها . وهى الكنيسة التوحيدية ، وكتبت ترجمة وافية لصديقتها شارلوت نشرتها فى سنة ١٨٥٣ أى بعد وفاة الصديقة بسنتين مستعينة فى هذه الترجمة بما علمته وما سمعته من أبيها وما أودعه بين يديها من محفوظات الكنيســة وسجلاتها ، فكانت ترجمتها هى المرجع الأصيل لحيـــاة شارلوت وأخبارها البيتية والأدبية ، وكانت فى عصرها كما كانت الى اليوم أوفى التراجم وأنفعها على الاطلاق .

ففى هذه الترجمة تروى المترجمة عن أسرة صديقتها أنها تربت على سنة « القناعة الرواقية » وتعودت الزهد فى ترف الغذاء والكساء ،

وكان العابر بدارها لا يشعر بأن فى الدار طفلا واحدا وفيها كل هؤلاء الأطفال الصغار وربما جلست أمهن مع الأطفال تقرأ فى صحيفتها وتخرج من الدار التى عكفت فيها على تربية صغارها وقراءة صحيفتها أو كتب صلاتها هى على اطلاع واف بكل ما يتحدث به المتحدثون اليها والمتحدثات عن أخبار العالم ومساجلات البرلمان ، ويجلس معها أولئك الصغار فى الدار فلا يزعجونها ولا تزعجهم فيما يتلهون به من شواغل اللعب والمطالعة ، لأن البنات ـ ومعهن أخوهن ـ يقضين الوقت بعد معاونة أمهن فى شئون الدار أما بالقراءة أو بعرض القصص التى يطلعن عليها ويلقين محاوراتها على ألسنة الأبطال والبطلات من التماثيل الصغار ، وكان تمثال القائد ولنجتون ـ بطل شارلوت المحبوب يخرج من جميع الوقائع منتصرا على خصومه ظافرا بأكليل الغار .

ولا يخفى أن الآداب البيتية ـ سواء جرت على سنة القناعة الرواقية أو على سنن التربية الحديثة ـ تختص البنات من أطفال البيت بأدب التحفظ والاحتشام لأنهن أمهات المستقبل وزوجاته والمشرفات على بيوته والآخذات فى تلك البيوت بزمام حياتها الاجتماعية ، ولا يعفى الصبيان من آداب التحفظ والاحتشام حيث تغلب على الأسرة وتشيع بين رجال البيئة ونسائها فى جملتها ، ولكنهم ينالون قسطهم من الحرية خارج البيت باختيار آبائهم أو بغير اختيارهم ، لأن حياتهم خارج البيت هى الحياة التى يتدربون لها ويعدهم العرف للمشاركة فيها على علاتها ...

وفى حالة هذه ـ الأسرة ـ أسرة برونتى ـ كان الصبى الوحيد باتريك برانويل ينال من هذا الاستثناء فوق ما يناله الصبيان عادة فى الأسرة المحافظة أو فى الأسرة المتحررة من تقاليد الصرامة الرواقية ، لأنه الصبى الوحيد بين ست بنات شقيقات ، يدللنه ويميزنه بينهن بالرعاية ، كما يدلله الأبوان اللذان غلبتهما فتنة هذا الحنان على صرامة « الرواقيين » ووقار المتدينين المتزمتين . وقد جنى عليه هذا التدليل ودفعته الحرية الخارجية الى « رد الفعل » الذى يجاوز بصاحبه حدود الحرية المباحة ،

فكان افلاته من القيود أشد من افلات الطليق الذى لم يعرف المنع والتقييد .

أما الأخوات الرواقيات فقد نجون من الفتنة بخير ما تعتصم به النفس البشرية بين عوامل الهدم والقلق ، وهو عمران النفس باليقين والأمل ، وأغناهن ما بينهن من العطف والرحمة عن التماس العطف المفقود عند الدنيا والناس ، فاحتملن من الدنيا والناس ما لا تحتمله النفس البشرية بغير ذلك اليقين وذلك الأمل .

والمرأة بما تأصل فى وجدانها من غريزة الأمومة مطبوعة على التضحية والغفران تعطى ولا تنتظر الجزاء وتحب وتقيس حبها بمقدار ما ترتضيه من ألم فى سبيله ، ولا يعطل فيها هذه الغريزة شىء غير فقدان الثقة بالخير فى هذه الحياة ، تطلب الخير فلا تجده ، وتطلب الثقة فلا تجدها ، فاذا انقلبت الى نفسها لم تجد ثمة غير « الأنانية المريضة » توشك أن تستمرىء الشر لذاته وأن تستمتع بالقسوة لذاتها ، وأن تطلب ما لا حاجة به وتضمن بما تستغنى عنه ، وأن تقابل التضحية بنقيضها من طرف الأنانية الممسوخة ، لأن التضحية تعطى بغير جزاء ، ولأنانية الممسوخة تأخذ بغير حاجة .

ولقد تمت فضيلة التضحية فى الأخوات الرواقيات بغريزة الأنثى وعقيدة الايمان ، فاعتصمن بها من آفات الشدة والضنك ومصائب الموت والسقم ، وخرجن من تلك المصائب والآفات جميعا بذخيرتهن الموفورة الباقية وهى ذخيرة القدرة « الموجبة » على الخلق والانتاج .

ولقين الشر والأشرار فى دنياهن فكان الشر غذاء لرحمتهن يشعرهن بحياتها ، وكان الشرير عندهن مصابا يحتاج اليهن ولم يكن جرثومة يبتعدن عنها ، فاذا ابتلين بشره كانت هتفتهن له : مسكين ، ما أشقاه ، ولم تكن هتفتهن : تبا له .. ما أظلمه وأقساه ..

وأغرب الغرائب فى قصة « چين اير » أن تشغف البطلة بالرجل الذى أشقاها دون غيره من زمرة الرجال حولها ، ولكنه — فى هذا الحساب — أول ما يخطر على البال وأقربه الى المألوف .

ولقد كان الهاما من « ألدريك » فى حواره أن يقول : « ان الصراع لا يبدو هنا بين النزعة الرومانتيكية فى ذاتها والواجب .. لأنها ليست نزعة رومانتيكية على الاطلاق ولكنها نزعة دينية ، وهى النزعة التى تبعث الطاقة فى الرواية وتعطيها مثل هذا السمو والقوة » .

ولسنا نريد أن نلخص الرواية فى هذه الصفحات لمن لم يقرأوها ، لأن التلخيص يذهب بخفايا ذلك التطور النفسانى العجيب الذى يتصرف بالعاطفة البشرية ـ مع طبيعة التضحية ـ فيتحول بها من النفور الى الاهتمام الى الاشفاق الى التعود الى الصفح والشغف وضعف العزيمة على الفراق .

ولكن حوار النقاد فيما يلى كاف لفهم خفـــايا السريرة البشرية فى طوية الكاتبة وطوية البطلة الروائية التى أعارتها كل ملامحها ، وقد نفهم كثيرا جدا من حياة الكاتبة وحياة البطـــلة اذا فهمنا معجزة الايمان بالجانب « الموجب » من الحياة الانسانية ، وفهمنا أننا ننتظر من هـــذا الجانب وحده أن يبنى ويخلق ولو تضافرت حوله عوامل الهدم والسلب، لأن القدرة على « التضحية » تبتعث فى النفس ـ ولا سيما نفس الأنثى ـ غاية المستطاع من الاعطاء والتكوين .

عباس محمود العقاد